المجلد: 17 العدد: 02/ مارس 2022
ص: 394- 401
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

تداولية الخطابة والشعر في أداء الإقناع – دراسة تداولية-

The pragmatics of rhetoric and poetry in the performance of persuasion - a pragmatic study-

عبد العزيز خويلد*[1]. أ.د ناصر سطمبول[2]

[1] جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، Khaziz1988@gmail.com.

[2] جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، naceur_stamboul@yahoo.fr.

مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران -1- أحمد بن بلة

تاريخ الإرسال: 2021/05/08 تاريخ القبول:2021/09/27 تاريخ النشر: 2022/03/28

ملخص: إنّ الحديث عن فن الخطابة والشعر وعن كيفية التواصل بهما، حديث ليس وليد الساعة كما أنّه ليس بالأمر الهيّن، فلمّا نتحدّث عن تواصل الشعر بالخطابة فإنّه بالضرورة ينبغي الإشارة عن تواجد خطابة في الشعر، وشعر في الخطابة غير أنّ الأمر ليس بنفس القوة في الحالتين؛ فالشاعر لا يحاجج بمعنى الكلمة، حتى وإن كانت شخصياته تحاجج؛ فالحجاج عنده يساهم في تنمية حدود الحبكة، والخطيب لا يخلق حبكا للحكاية حتى وإن ضمن خطابه عنصرا سرديا، فنجد أنّ الخطباء كثيرا ما يعمدون إلى الأبيات الشعرية لتقويّة كلامهم، فيذكرون شطرا أو بيتا من قصيدة، وقد يكون البيت أعمل في النفوس من الخطبة كلّها.

الكلمات المفتاحية: شعرية، خطابية، تداولية، إقناع.

Abstract: The debate about the art of public speaking and poetry and about the ways in which they interact is neither new nor simple.And since we are talking about the relation of poetry with rhetoric, it seems necessary to refer to the presence of rhetoric in poetry, and poetry in rhetoric, but the matter is not as strong in both cases.The poet does not argue with the meaning of the word, even if his characters are arguing; arguing according to the poet contributes in the developing of the plot, and the rhetorician does not create a plot for the story even if there is a narrative element in his speech, so we find that rhetorician often resort to poetic verses to strengthen their speech, and they mention a part or a line of a poem, and the verse may affect the souls, more than the whole sermon.

Key words: poetic, rhetoric, pragmatics, persuasion

1-مقدمة:

إنّ أبسط وصف أو تعريف للغة عند اللسانيين يتّضح من حيث مكوناتها، أنها أصوات ومفردات وجمل ونصوص تكرّس في أداء التواصل والتفاهم بين أفراد اللغة الواحدة، واللغة هي المنبع والمصدر الأساسي لما يسمى بالتداولية، إذ لا تداولية من دون لغة؛ وعليه يرى علماء اللغة بأنّ اللغة هي المحور الأساسي بين التداولية واللسانيات، في حين تتقاطع التداولية مع الشعر_من حيث هو لغة بالدرجة الأولى_ في إحداث التواصل، إذ أنّ "كلّ عمل شعري يعني تواصلا بين المبدع والمتلقي، والتواصل يهدف إلى توصيل رسالة من نوع خاص ذات محتوى متّصل بالقيم"[1]، وهذا ما تهدف إليه الخطابة _تماما_، إلاّ أنّها فن من الفنون الأدبية النثرية، وحتى تكون ناجحة لابد من وجود متلق للتأثير فيه وإقناعه، إذ أنّ الهدف من

* المؤلف المرسل

الخطابة هو التأثير والإقناع في نفس المستمع، وهذا لا يتأتّى إلاّ من خلال تلك العلاقة التواصلية بين الخطيب (المتكلّم) والسامع (المستقبل)، فالذي يجمع بينهما هي العادات والتقاليد واللغة المشتركة بينهما.

بهذا الطرح فالشعر والخطابة ليسا بعيدين عن غرض الاتصال، بل لا يقومان دون أن يوجّها إلى متلقّ ما أو قارئ ما، وهما في هذا يرومان التواصل ويقومان عليه .. وهو المبدأ نفسه الذي تعتمده التداولية في تناولها اللغة؛ إذ هي استعمال وتواصل. وإلى جانب هذا المعنى، يستند مفهوم الإيصال في الشعر إلى تسليم الطرف المتلقي بهذا المبدأ وبأهميّة فعل المتلقي الذي يقوم به، وبذلك يتمّ الإيصال[2]؛ يقول المتنبي:

إنّما تنفعُ المقالةُ في المر ءِ إذا وافقتْ هَوَى في الفؤادِ

ولمّا اعتبرت اللغة هي العامل المشترك بين المتكلم والسامع لإنجاح العملية التواصلية، من هذا المنظور يتّضح أنّ التواصل هو ذلك التبادل اللفظي بين متكلم يصدر عبارة موجهة إلى متكلم آخر أو إلى مخاطَب ينتظر منه المتكلم الاستماع أو جوابا ضمنيا أو صريحا، وذلك بحسب نوع العبارة وهذا ما يسمّى بالحوار، أو هو: عملية انتقال نبأ من نقطة إلى أخرى أو من شخص إلى شخص آخر[3].

وتجدر الإشارة على أنّ الحجاج يقع ضمن اهتمام الدراسة التداولية لا اللسانية، باعتبار أنّه ملفوظ والملفوظيّة باب من أبواب التداولية، وأهمّ محطّة يتمّ فيها استغلال الحجاج هي الخطابة التي من خلالها ندرك قوة شخصية القائل وقوّة تصوّره، ويتمّ تصنيفه من خلال لغته ومدى إنجازيتها في الواقع أو مدى تأثيرها في نفس المستمع، وعليه لا تبدو "المقاربة بين التداولية والشعر يسيرة، إذ التداولية فلسفة أصلا، والشعر فن أصلا ... وما بين الفلسفة والشعر كما بين العلم والفن ... فأهمّ ما يميّز الفلسفة عن الشعر أنّها تتأسس على التجريد خلافاً للشعر الذي يؤسِّس مادّته في الغالب على عناصر حسيّة تشكّله. إضافة إلى أنّ غاية الفلسفة هي العلم أمّا غاية الشعر فتحصل بما يُحدثه من فعل الشعر في نفوس متلقيه"[4]، وهذا لا ينفي تواجد الفلسفة في الشعر ففي تاريخ الادب العربي _مثلا_ نجد نماذج كثيرة عن حضور الفلسفة في الشعر، كالخطابة مثلا، حيث قال الأحوص:

وما الشّعرُ إلا خطبة لمؤلفٍ لمنطقِ حقٍ أو لمنطقِ باطلِ

وعليه جاء هذا البحث ليفسّر عن مدى تواصل واستثمار الخطابة للشعر في إقناع واستمالة المتلقي.

2-الشعرية الخطابية:

إنّ الكلام عن الشعر هو كلام ليس وليد الساعة، والحديث عنه في بالغ الأهميّة حتّى ولو كان في كلّ زمان ومكان، وذلك لما له من أثر في نفس المتلقي وما يحتلّ من مكانة في القبيلة، حيث جلّ الأدباء القدامى والمحدثين إن لم نقل كلّهم يسيرون على هذا الطرح، فـ هادي نهر _مثلا_ قد تحدّث في كتابه (الكفايات التواصلية والاتصالية) عن الوظيفة الجمالية للشعر والمكانة التي يحتلها في المجتمع، يقول: "وقد كان الشعر في المجتمع العربي ما قبل الإسلام الوسيلة الأولى لتسجيل الأحداث ونشرها زيادة على وظيفته الجمالية، ولذلك وجدنا في الشعر العربي قبل الإسلام صورة بيّنة للعصر في السلم والحرب إذ كان الشعر (الصحيفة) الناطقة باسم القبيلة، آرائها وقيّمها ومآثرها وأوجه صراعها مع غيرها، ولهذا دأب العرب على حفظ أشعارهم وتناقلها عبر الزمان لأنها تمثّل حيواتهم في مظاهرها المختلفة"[5]، وعن تواصل الخطابة بالشعر يردف حديثه عن تواجد الشعر مع الخطابة فيقول: "ولأنّ الشعر كان وسيلتهم الإعلامية المثلى، ... وكان مع الشعر (الخطابة) التي استند إليها العرب في مفاخراتهم ومنافراتهم وتأكيد مآثرهم، واستنهاض هممهم في الحثّ على القتال، والتحريض تعليه، وبثّ الموجدة في نفوس القبائل لحملها على الذود عن القيم والعرض والمال، أو للدعوة إلى السلم، وإصلاح ذات البين"[6]، والفرق بين الفعل الشعري والفعل الخطابي هو أنّ دور الشاعر يتمثّل أساسا في صنع حبكة وحكاية ملائمة مع الموقف لا انتاج كلمات وجمل فقط، "فالفعل الشعري هو خلق حكايات-حبكة، والفعل الخطابي هو تقديم حجج"[7]، فالخطابة هي وسيلة الإقناع المثلى

ولمّا نتحدّث عن اتحاد الخطابة مع الشعر ليصيرا خطابا واحدا، ومدى انجازية هذا الخطاب في نفس المتلقي، فقد

ا-

عتبر رابح بوحوش الخطاب الشعري "فعاليّة لغويّة انحرفت عن مواضعات العادة والمألوف، وتميّزت بخاصيّة التحدّي التي رفعتها عن موضعها الاصطلاحيّ إلى موضع جديد يخصّها ويليق بها، والظاهر أنّ خير وسيلة للنظر في تجليّات الخطاب الشعريّ، وسبل التحرر من عناصره هو الانطلاق من مصدره اللغوي من حيث كان مقولة أسقطت في نظام التواصل اللّفظيّ"[8]، وهذا مذهب عبد القاهر الجرجاني حين ذكر الغرض من الخطاب الشعري، معتبرا إيّاه ماهو إلا "إيصال غرض المتكلم ومقصوده إلى السّامع"[9]، وذلك بنية التأثير والتأثر ومن ثمّ نجاح العملية التواصلية بين الطرفين.

وعن مدى استثمار الخطابة للشعر فينبغي أن نفرّق ونميّز بين "خطابة في الشعر، وشعر في الخطابة فالأمر ليس بنفس القوة في الحالتين؛ فالشاعر لا يحاجج بمعنى الكلمة، حتى وإن كانت شخصياته تحاجج؛ فالحجاج عنده يساهم في تنمية حدود الحبكة، والخطيب لا يخلق حبكا للحكاية حتى وإن ضمن خطابه عنصرا سرديا"[10]، وعليه نجد أنّ الخطباء كثيرا ما يعمدون إلى الأبيات الشعرية لتقويّة كلامهم، فيذكرون شطرا أو بيتا من قصيدة، وقد يكون البيت أعمل في النفوس من الخطبة كلّها[11].

2-1-الفلسفة الإغريقية وترسيخ خطابة الإقناع:

وإذا كان فنّ الخطابة حتى عهد النهضة ولاسيما قديما لدى الإغريق والرومان، يأتي مجاورا لفن الشعر، فينبغي القول: إن الشعر ما كان يأتي إلاّ لاحقا بالخطابة التي كان من مهمتها عقلنة قوانين الخطاب المغايرة للخطاب الأدبي[12]، تماما كما هو الشأن عند الجرجاني الذي ألحق الشعر بالخطابة من حيث تلازمهما واشتراكهما في كثير من الخصائص والأغراض[13]، كالمدح والفخر والهجاء...الخ.

قال الشاعر:

والصّارمُ المصقولُ أحسنُ حالةٍ يومُ الوغى من صارم لم يُصْقَلِ

فهذا احتجاج على فضيلة الشيب، وأنّه أحسن منظرا من جهة التعلق باللون، وإشارة إلى أن السواد كالصَّدإ على صفحة السيف، فكما أن السيف إذا صُقِل وجُلى وأزيل عنه الصّدأ ونُقِّيَ كان أبهى وأحسن، وأعجب إلى الرّائي وفي عينه أزين، كذلك يجب أن يكون حكمُ الشَّعَر في انجلاء صدإ السواد عنه، وظهور بياض الصِّقال فيه[14].

فعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أو كما قال الجرجاني في أسرار البلاغة بأن "يجعلوا اجتماع الشيئين في وصف علّةً لحكم يريدونه، وإن لم يكن كذلك في المعقول ومقتضيات العقول، ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحَّح كون ما جعله أصلاً وعلّةً كما ادّعاهُ فيما يبرم أو ينقضُ من قضيّة، وأن يأتي على ما صيَّره قاعدةً وأساساً بيّنة عقلية، بل تسلّم مقدّمته التي اعتمدها بيّنةً، كتسليمنا أنّ عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه، وتناسينا سائر المعاني التي لها كُره، ومن أجلها عيب"[15].

وفي العموم فإنّ أي خطاب شعري أو نثري _شفويا كان أو مكتوبا_ تكون له، إلى جانب الوظيفة الشعرية وظائف أخرى، مثل "الوظيفة الانفعالية والوظيفة التوجيهية الإقناعيّة، والتي يعبر عنها بالتعجب والاستغاثة والندبة والأمر والنداء أو بأسماء الأفعال والروابط التداولية الحجاجيّة"[16]، فالخطاب الشعري ليس بالضرورة أن يكون مجموعة ألفاظ متسلسلة مبنية على وزن وقافية وبحر، ولا عبارة عن نقل تجربة ذاتية فحسب، بالإضافة إلى ذلك فهو يهدف إلى الحث والتحريض والإقناع، ويعمد إلى تغيير أفكار المتلقي واعتقاداته، ومن ثمّ إلى سلوكه ومواقفه كما هو واضح جليا في النصوص الشعرية عند الشعراء الثوّار الجزائريين كعبد الحميد بن باديس –على سبيل المثال لا على سبيل الحصر- في قصيدته المشهورة شعب الجزائر مسلم. فالهدف الأساس من هذه القصيدة _التي هي خطبة في الدرجة الأولى_، كان الحث والتحريض والإقناع ومن ثمّ التغيير الذي أحدثته في نفس المتلقي، لما لا وهي الغاية المتوخاة من الخطابة والشعر.

وضمن هذا المضمار هناك من يفرق بين الخطابة والشعر باعتبار أنّ الإقناع والتخييل هما ميزة الخطابة عن الشعر "فقد أشاروا في موضع من كتبهم وأعمالهم إلى أنّ الخطابة قد تستعمل التخييل والشعر قد يستعمل الإقناع"[17]، أو العكس باعتبار أنّ الخطابة تستهدف الإقناع، في حين الشعر يستهدف التخييل والحلم والوهم، إلاّ أنّ ما يراه حازم القرطاجني في

كون أنّ هذين النمطين يخرجان من مشكاة واحدة، أي أنّ لهما هدف واحد وهو: "إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثّر لمقتضاه"[18]، فبهذا الطرح فقد اشترك كل من الخطابة والشعر في الإقناع والتخييل.

واعتبرت البلاغة العربية الإقناع "أحد طرفي العلاقة بين رسالة هادفة إلى توجيه الفكر أو الاعتقاد، وطرفها الآخر هو الإقناع، وهذان الطرفان متلازمان وجودًا أو عدمًا، فلا وجود للاقتناع دون وجود الإقناع"[19]؛ أي أنّ الإقناع والاقتناع لا يتحققان إلاّ بوجود طرفي العملية التواصلية فعلاً (المرسل والمرسل إليه)، باعتبار أنّ الأول يقنع والثاني يقتنع.

الشكل رقم 1: سريان عملية الإقناع والاقتناع

وقد درس النقاد العرب القدماء إستراتيجية الإقناع دراستا نظرية من خلال زاويتين: -أولهما التنظير لاستراتيجيّة الإقناع ذاتها.

-أمّا الأخرى فهي التي عنيت بوضع الضوابط للسياقات التي تستعمل فيها هذه الإستراتيجية[20].

ويمثل الجاحظ الوجهة الأولى، ويقول في معرض حديثه في كتابه البيان والتبيين عمّا تتطلبه الخطابة من الجهر بالقول: "وهذا القولُ وغيرهُ من الأخبار والإشعار حجةٌ لمن زعم أنّ عمرو بن سعيد لم يسمَ الأشدق للفقم ولا للفوه"[21]، ثم حاول أيضا إيضاح مفهومي البيان والبلاغة، مستشهدا بما لدى الأمم الأخرى، حتى تمكّن من أن يحدّد آلة البلاغة، باستشهاده ببعض ما ورد في صحيفة تنتمي إلى الثقافة الهنديّة[22]، حيث يقول: "أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخيّر اللفظ، لا يكلم سيّد الأمّة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السوقة ..."[23]، فهذا أحسن تمثيل للخطاب عبر الأداء الشعري الشفوي في خطاب المناظرة على أكمل وجه، ويتّضح "أنّ الغاية القصوى عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين هي الخطاب الإقناعي الشفوي، وهو إقناع تُقدّم فيه الغاية (الإقناع) على الوسيلة (اللغة) وتحدد الأولى طبيعة الثانية وشكلها حسب المقامات والأحوال"[24]؛ أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأفضل تمثيل لذلك هو قول الحطيئة حين خاطب عمر بن الخطاب بخطاب شعري حين قال:

تحنّـن علـيَّ هـداك المليـكُ ... فـإنّ لكلّ مقـامٍ مقـالا

قال بشار بن برد:

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيّةً ... هتكْنا حجابَ الشمسِ أو قَطَرَتْ دمًا

إذا ما أعَرْنا سيّدا من قبيلـةٍ ... ذُرى منبـرٍ صَلّى علينـا وسلّمـا.

وقال أيضا:

ربابـةُ ربّـةُ البيت ... تصبُّ الخلّ في الزّيت

لها عشرُ دجاجات ... وديكٌ حسـنُ الصوتِ[25]

لمّا نقوم بعقد مقارنة بين الخطابين الشعريين يتّضح جليا أنّهما مختلفان في السياق والمقام التي قيلا فيه، وذلك باعتبار أنّهما موجّهان لمستوى معين من الفهم والإدراك من الأشخاص، فبشار بن برد في الخطاب الشعري الأول على سبيل الحثّ والتحريض والإقناع فهو يخاطب أشخاصا على أهبة الاستعداد لخوض المعركة، ويثير النقع ويستنهض الهمم من أجل الحرب، ويفاخر بما عليه قومه من شجاعة وبأس بأسلوب قوي ورصين[26].

ومن حيث البساطة والتعقيد نجد أنّ الخطاب عبر الأداء الشعري في القول الثاني أقلّ تعقيدا من الخطاب الأوّل؛ حيث جاء بأسلوب مباشر لأنّه موجّه إلى مستوى معين من الفهم والإدراك غير المستوى في الخطاب الشعري الأول، فهو

يخاطب جاريته رباب التي تجمع له البيض وتحفظه عندها بكلام سهل بسيط تفهمه، ولو خاطبها بغير هذا الكلام، لكان غير مطابق لمقتضى الحال. فلكل مقام مقال[27] فهذا الخطاب لا يحتاج إلى كدّ الذهن في فهمه، للأسباب المذكورة، فكل خطاب شعري له وسائله الإقناعية التي يستعين بها من أجل استمالة المتلقي وأسره، وهذا ما نجده عند البلاغيين العرب من أجل الإقناع والإذعان لا غير، حيث مدار البلاغة العربية كلّها "مبنيّة على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنّه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائعة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"[28] باعتبار أنّ غاية البلاغة هو الإيصال ثمّ التواصل بين المرسل والمرسل إليه، والاقتناع هو المدار الذي من خلاله يتمّ تقييم العملية التواصلية، وهذه إحدى الأمور التي تشترك فيها البلاغة العربية مع ما يسمى بالتداولية.

وفي البحوث الغربية كان ظهور الإقناع موازيا في ظهور كتاب فن الخطابة لأرسطو حيث "يعدّ هذا الكتاب من أقدم الكتب التي اهتمت بالإقناع وأدواته"[29]، حيث اعتبر النقاد القدماء الإقناع سمة أي خطاب، و"وحدة هدف الخطاب هي التي برّرت إدماج جنسي الشعر والنثر ضمن إطار الحجاج، وأنّ الحجاج يوجد حيث ما وجدت اللغة"[30]، فالجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" "يستوي عنده جنسا النثر والشعر، إذ يتعامل مع كل جنس منهما بوصفه خطابا في هذا المضمار، بغض النظر عن التصنيف التقليدي أو الفوارق الدقيقة بينهما، مع احتفاظه لكل جنس بخصائصه التي تميّزه على مستوى الشكل. وهذه إحدى مزايا عمله، إذ لم يقتصر مفهوم الخطاب الإقناعي عنده على جنس بعينه"[31]، هذا من جهة، ثم هو يقول من جهة أخرى إنّ "الرجل يكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع، ولا يكون له طبع قرض بيت شعر، وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرّجز، وفيهم من لا يستطيع مجاوزة الرّجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعهما، وفي الشعراء من يخطب، وفيهم من لا يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قريض الشعر، والشاعر نفسه قد تختلف حالاته"[32].

أمّا أبو هلال العسكري، لمّا تحدّث عن إمكانية الجمع بين الخطابة والشعر كوسيلة حجاجية يتمّ من خلالها استمالة المتلقي، ذهب به الأمر إلى إحداث التشابه بين الرسائل والخطب _باعتبارهما أدبيات نثرية_، وعن إمكانية اختلافهما عن الشعر حيث يقول: "واعلم أنّ الرسائل والخطب متشاكلتان كونهما كلاما لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكُتّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل؛ ولا فرق بينهما إلاّ أنّ الخطبة يشافه بها، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة، ولا يتهيّأ مثل ذلك في الشعر من سرعة إقباله وإحالته إلى الرسائل إلاّ بكلفة؛ وكذلك الرسالة والخطبة لا تجعلان شعرا إلاّ بمشقّة"[33].

3-الاحتجاج وأنواعه:

على الرغم من الاختلافات الواردة عند أبو هلال العسكري يبقى الاستشهاد والاحتجاج بالشعر أرقى منه في النثر، لأنّ الشعر يمثل الطبقة العليا من كلام العرب أكثر ممّا يمثّلها كلامهم المنثور، ويمثّل الاحتجاج اللغوي بالشعر" واحدا من أبكر صور الدراسات اللغوية، وبناء على ما نقله البغدادي عن أبي جعفر الأندلسي* فقد قسّم (حسن جبل) الاحتجاج بالشعر إلى قسمين: احتجاج لغوي واحتجاج في المعاني.

3-1-الاحتجاج اللغوي:

أفضل تحديد للاستشهاد اللغوي في _رأي الباحث_ هو ما ذهب إليه عمر بن الخطاب رضي الله حين تساءل عن معنى قوله تعالى: "أو يأخذهم على تخوف"الآية47 سورة النحل، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا يا أمير المؤمنين. التخوف التنقص...قال عمر: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي:

تَخوَّف الرحلُ منها تامكا قَرِداً كما تَخَوّف عودَ النبعة السَّفَنُ

فقال عمر: أيّها النّاس عليكم بديوانكم –شعر الجاهلية-. فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم""[34].

وقد تبنّى الخليل ما ذهب إليه عمر بن الخطاب من احتجاج بالشعر فما يروى من احتجاجه بالشعر قوله: "أنشدني أعرابي:

وإنّ كلاباً هذه عشْرُ أبْطُنٍ وأنت برئ من قبائلها العشْرُ

قال: فجعلت أعجب من قوله: "عشر أبطُن" (حيث ذكّر كلمة عشر ممّا قد يعني أنّه يعد البطن مؤنثا-مع أنّه مذكر-وسبب تعجب الخليل أن هذا أعرابي فصيح لا يتوقع منه الخطأ) فلما رأى عجبي قال: أليس هكذا قول الآخر:

وكان مُجنى دون مَنْ كنْتَ أتّقَى ثَلاثُ شُخُوصٍ: كاعبانٍ ومُعصَرِ"[35].

3-2-الاحتجاج بالمعنى:

وفي مقابل هذا النوع من الاحتجاج هناك احتجاج بالمعنى؛ حيث يوجد في مدونات الشعراء العرب وغيرهم كالأندلسيين أبيات مختلفة لعدّة شعراء، لكن ما يجمع بينهم هي الفكرة العقلية أو المعنى الواحد، وحتى يتّضح المعنى أكثر كما يقال بالمثال يتضح الحال، جاء في شرح مقصورة ابن دريد لابن هشام اللخمي، في قول ابن دريد:[36]

إذا ذوى الغُصْنُ الرَّطيبُ فاعلمنْ أنّ قُصاراه نَفادٌ وَتَوَى

وهذا مأخوذ من قول الأسود بن يعفر:[37]

فأرى النّعيمَ وكُلَّ ما يُلهى به يَوْمًا يصيرُ إلى بِلىً ونَفاد

وقال آخر: والنّاس يبلون كما تبلى الشجر.

وقال آخر: كم غصن أخضر عاد جمرا.

فالمعنى الشامل لهذه الأبيات أو ما يُعبَّر عنه بالفكرة العقلية، هو أنّ كلّ جديد أو كلّ حي سيأتي يوما ويبلى فيه، فمصيره إلى الزوال لا محال.

فعن فضل الاستشهاد بالشعر وأهميّته ووقعه في نفس المتلقي، يذكر أبو حيّان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة عن ابن نباتة أنّ "من فضل النظم أنّ الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه أعني أنّ العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون: (قال الشاعر) وهذا كثير في الشعر، و(الشعر قد أتى به)، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجّة والشعر هو الحجّة"[38].

وبناء على مذهب الجاحظ قد يلجأ المتحاجّون إلى المزاوجة بين جنسي الشعر والنثر في خطاب واحد ما دام الهدف هو الإقناع وتعميم الفائدة وقد يحتكمون إلى جنس محدد (شعرا أو نثرا) من أجل مراعاة الفوارق الدقيقة بينهما فلا " يقتصر المرسل على المستوى النثري في حجاجه، بل يمكن أن ينتج المرسل خطابه الحجاجيّ شعرا، إذ يعدّ خطابا إذا توفّرت فيه سمات الخطاب، مثل أي خطاب آخر. وقد يكون الخطاب كلّه شعرا خالصا، بوصفه سجالا بين طرفين كلّ منهما يحاجج الطرف الآخر شعرا، أو بوصفه حجاجا من طرف واحد. كما يمكن أن يكون الشعر جزءًا من خطاب أعمّ بوصفه شاهد مثل المثل أو الحكمة أو قول أحد السلف"[39].

ولمّا نتحدّث عن الخطاب الشعري وأثره كوسيلة حجاجية في نفس المتلقي فإنّ خطاب المناظرة يعتبر من أهم الخطابات الشعرية في التراث العربي، الذي ينتجه المرسل للإقناع حيث "تبرز فيه سمات الكفاءة التداولية والقدرة على توظيفها طبقا لما يتطلبه السيّاق، من أجل بلوغ هدف الخطاب الكلي الذي يصبو إليه. فالإقناع هو المطلب الأساس من الخطابات التي تدور بين هؤلاء الذين تختلف توجهاتهم، سواء كان مجال المناظرات المذاهب الدينية أم اللغوية أم الفلسفية أم غير ذلك كلّه"[40]، لذلك نجد بعض الجهود فيما يتعلّق بوضع الضوابط السياقية، والتي "ينبغي أن يتحلى بها طرفا الخطاب. ومنها ما يخصّ الضوابط التخاطبيّة في المناظرات التي دوّنها القدماء في تقنينها، مثل ما ورد في بعض أعمالهم التأليفيّة التي كانت تهتمّ أساسا بوضع المناظرات وتفعيل الحجاج مثلاً، بوصفها الممارسات التي يتمثّل فيها الخطاب الرامي إلى تحقيق الإقناع أكثر من أي هدف آخر"[41]، ثمّ إنّ "نسبية الحجاج وارتباطه بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التداولية والاجتماعية هو من المبادئ التي تقوم عليها نظرية "الحجاج في اللغة" بل وأغلب النظريات الحجاجيّة القديمة والحديثة"[42].

4-خاتمة:

وعليه يبقى للحجاج مفهوما واسعا في مجال الدراسات اللسانية وغير اللسانية والحديثة منها خاصة ما تعلق بالخطاب التواصلي لذلك يربط فيليب برايتون Philippe bretonالحجاج بالعملية التواصلية، النشاط الجوهري للإنسان، الذي يميّزه عن الحيوان (غير الناطق)، أي منذ أن أصبح يمتلك هويّة، وآراء، واعتقادات، وقيما، ووجهة نظر حول العالم الذي يعيش فيه ويحاول أن يتقاسمها مع غيره[43].

الهوامش:

[1] عصفور (جابر): **مفهوم الشعر**، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2007، ص232.

[2] ينظر: بوجادي (خليفة): **في اللسانيات التداولية**، مقاربة بين التداولية والشعر دراسة تطبيقية، بيت الحكمة، سطيف الجزائر، ص15.

[3] ينظر: هادي نهر: **الكفايات التواصلية والاتصالية**، دار الفكر، ط1، عمان، 2003، ص84.

[4] المرجع نفسه، ص14.

[5] المرجع نفسه، ص26.

[6] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[7] العمري (محمد): **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، إفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2012، ص18.

[8] بوحوش (رابح): **اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري**، دار العلوم، الجزائر، ص17.

[9] الجرجاني (عبد القاهر): **دلائل الإعجاز**، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، مكتبة الايمان، القاهرة، ص55.

[10] العمري (محمد): **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، ص18.

[11] فاخوري (حنا): **الجامع في تاريخ الأدب العربي**، دار الجيل، ط1، بيروت، 1986، ص338.

[12] تودوروف (سفيتان): **مفهوم الأدب ودراسات أخرى**، ت عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دط، دمشق، 2002، ص12.

[13] ينظر: بوجادي (خليفة): **في اللسانيات التداولية**، مقاربة بين التداولية والشعر دراسة تطبيقية، ص15.

[14] الجرجاني (عبد القاهر): **أسرار البلاغة**، ت محمود محمد شاكر، دار المدني، د ط، جدّة، د ت، ص270.

[15] المرجع نفسه الصفحة نفسها.

[16] العزاوي (أبوبكر): **الخطاب والحجاج**، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، بيروت، 2010، ص37.

[17] المرجع نفسه، ص36.

[18] المرجع نفسه: **الخطاب والحجاج**، ص36.

[19] استيتية (سمير شريف): **اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)**، عالم الكتب الحديث، ط1، 2005، ص700-701.

[20] الشهري (عبد الهادي بن ظافر): **استراتيجيات الخطاب**، ص448.

[21] الجاحظ (أبو عثمان): **البيان والتبيين**، ت علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، ج1، ط2، بيروت، 1992، ص122.

[22] الشهري (عبد الهادي بن ظافر): **استراتيجيات الخطاب**، ص448.

[23] الجاحظ (أبو عثمان): **البيان والتبيين**، ص93.

[24] العمري (محمد): **المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي**، مجلة دراسات، ع5، خريف شتاء، 1991، ص11.

[25] ينظر: اللّادقي (أحمد الطاهر): **المبسط في علوم البلاغة**، المكتب التجاري، ط2 بيروت، 1963، ص19-20.

[26] ينظر: المرجع نفسه، ص20

[27] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[28] ابن الأثير ضياء الدين: **المثال السائر في أدب الكاتب والشاعر**، دار النهضة للطباعة والنشر، ط2، مصر، د ت، ص250.

[29] الشهري (عبد الهادي بن ظافر): **استراتيجيات الخطاب**، ص448.

[30] ينظر: المرجع نفسه، ص452.

[31] الشهري (عبد الهادي بن ظافر): **استراتيجيات الخطاب**، ص448-449.

[32] الجاحظ: **البيانو التبيين**، ص208.

[33] العسكري (أبو هلال): **كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر**، ت مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1984م، ص132.

[*] نقل البغدادي عن أبي جعفر الراعي (الأندلسي)قوله: "علوم الأدب ستة: اللغة والصرف والنحو، والمعاني والبيان والبديع، والثلاثة الأول لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب، دون الثلاثة الأخيرة، فإنّها يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولّدين، لأنّها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك (أي

المعاني) بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجع إلى العقل، ولذلك قبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي طيب وهلم جر"
نقلا عن حسن جبل: **الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته**،

[34] حسن جبل: **الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته**، دار الفكر العربي، د ط، القاهرة، د ت، ص52 -53.

[35] المرجع نفسه، ص55 -56.

[36] شرح المقصورة لابن هشام: نقلا عن: حسن جبل: **الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته**، ص58.

[37] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[38] التوحيدي (أبو حيّان): **الإمتاع والمؤانسة**، مكتبة الحياة، ج1، دط، بيروت، ص136.

[39] الشهري (عبد الهادي بن ظافر): **استراتيجيات الخطاب**، ص506.

[40] المرجع نفسه، ص449.

[41] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[42] العزاوي (أبوبكر): **الخطاب والحجاج**، ص38.

[43] *Voir: Philippe breton : l'argumentation dans la communication، 3eme édition،la découverte، paris، 2003، p15.*

5-قائمة المصادر والمراجع

المؤلفات بالعربية

ابن الأثير ضياء الدين: **المثال السائر في أدب الكاتب والشاعر**، دار النهضة للطباعة والنشر، ط2، مصر، د ت.

أبو حيّان التوحيدي: **الإمتاع والمؤانسة**، مكتبة الحياة، دط، بيروت، ج1.

أبوبكر العزاوي: **الخطاب والحجاج**، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، بيروت، 2010.

أحمد الطاهر اللّادقي: **المبسط في علوم البلاغة**، المكتب التجاري، ط2، بيروت، 1963.

جابر عصفور: **مفهوم الشعر**، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2007.

الجاحظ أبو عثمان: **البيان والتبيين**، ت علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط2، بيروت، ج1، 1992.

حسن جبل: **الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته**، دار الفكر العربي، د ط، القاهرة، د ت.

حنا فاخوري: **الجامع في تاريخ الأدب العربي**، دار الجيل، ط1، بيروت، 1986.

خليفة بوجادي: **في اللسانيات التداولية**، مقاربة بين التداولية والشعر دراسة تطبيقية، بيت الحكمة، سطيف الجزائر.

رابح بوحوش: **اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري**، دار العلوم، الجزائر،

سفيتان تودوروف: **مفهوم الأدب ودراسات أخرى**، ت عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دط، دمشق، 2002.

سمير شريف استيتية: **اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)**، جدارا للكتاب العالمي، ط1، عمان، 2005.

عبد القاهر الجرجاني: **أسرار البلاغة**، ت محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، د ط، د ت.

عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، القاهرة.

العسكري (أبو هلال): **كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر**، تح/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1984.

محمد العمري: **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، إفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2012.

هادي نهر: **الكفايات التواصلية والاتصالية**، دار الفكر، ط1، عمان، 2003.

المؤلفات بالإنجليزية:

Philippe breton : l'argumentation dans la communication، 3eme édition،la découverte، paris، 2003 .

المجلات

محمد العمري: **المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي**، مجلة دراسات، ع5، خريف شتاء، 1991.